دراسات أدبية

فى الأدب الايطالى الحديث

تتمة

بقلم محمد أمين حسونه

وقد ذكر بابينى أن هذه الرواية هى قصة جيل كامل . والواقع أننا لا نلمس فيها سوى أثر الآلام التى يشكو منها جيل المثقفين من المرضى النورستانيين ، الذين تتسلط عليهم الأفكار السوداء ، فوقف تقدمهم الفكرى دون الخلق والابداع . وقد حاول بابينى فى هذه الرواية أن يطبق أصول الفلسفة العملية « البراجاتزم » ، وأن يخلط الجد بالهزل ليخرج لنا الحقائق الفاجعة ، والسخريات المرة اللاذعة

أما كتابه الذى أصدره فى غضون الأعوام الأخيرة بعنوان « جوج » ففيه ينقد بقسوة الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والدينية ناقماً على الثقافات التى تقود العالم إلى الدمار والخراب ما خلا الثقافة اللاتينية ، فهو يزعم أن فى استطاعتها وحدها أن تنقذ العالم من الويلات التى يتردى فى أعماقها

والواقع أن بابينى إنما يستقى فنه من تيار سابق لتفكير بيراندللو . والفرق بينهما أن بيراندللو استطاع أن يتخلص من آثار العقل الخصب ، وأن يخلع على أبطاله ظلاً من روح الفكاهة والمرح . أما بابينى فلفرط استغراقه فى الفلسفة تراه يطبع رواياته بهذا الطابع الجاف الذى يباعد بينه وبين تفكير الجيل

وفى الوقت الذى بدأ الناس يميلون إلى الروح الهادئة فى الفن القصصى وإلى الشخصيات التى تمثل التضحية أو الاخلاص أو المثل الأعلى ، يلجأ بابينى إلى غمر قصصه بالنظريات الفلسفية ، تاركا للقراء حرية تفسيرها فى ضوء الحوادث . ولذا نلمح أن معظم أبطاله يعيشون فى جو مظلم ، ويقاومون أعاصير الحياة عن طريق المذاهب العقلية

ولعل فى حياة بابينى الأدبية عظة بالغة ، فهو يحارب الشعراء لأنهم فى نظره بلهاء كالأطفال ، وقد اتخذ لنفسه منذ نشأته صفة المجادل الذى يحاول مناقشة آراء خصومه عن طريق هدم مجدهم الأدبى تمهيداً لتشييد صرحه فوق أنقاضه ، لكنه لم يهدم فى النهاية سوى نفسه ، حتى إن فلسفته أوشكت أن تموت فى أذهان القراء

المدرسة الاقليمية

وقبل التحدث عن أثر المدرسة الاقليمية فى الأدب الايطالى الحديث يحسن بنا أن نتحدث عن خصائصها ومميزاتها ، فهى تلتمس أسلوبها فى فن جيوفانى فرجا Giovanni Verga وتميل بعض الشىء إلى الرواية الهادئة التى تقوم على ذكريات خاصة خالية من روح التكلف ، وإلى الحياة الفطرية الساذجة ، والعودة إلى أحضان الطبيعة مع إحياء الطابع القوى الخاص فى الأدب الايطالى الحديث

وإذا اعتبرنا أن المذاهب الأدبية فى ايطاليا تقوم على الوجدانيات البالغ فيها ، والخيال الشعرى ، والوطنية المتأججة ، أمكننا أن نوازن بين الفن الروائى القديم وبين الفن الذى ابتدعه فرجا ؛ فهو يقوم على الحس والمشاهدة الملموسة مع تصوير العادات والأخلاق والحوادث التاريخية البارزة

وربما كان فن المدرسة الأقليمية يمت بأقوى الصلات إلى اسكندر ديماس ، وأسلوبها الكتابى إلى جورج صاند التى سبق أن قضت فجر شبابها فى ربوع ايطاليا ، وكان لجو البندقية الشعرى أثر بليغ فى روحها الفنانية

لقد نشأ (فرجا) فى مدينة كتانيا بجزيرة صقلية ، وطوف بأنحاء إيطاليا بقصد التبشير بفنه الجديد ، وتكوين جمعيات أدبية فى كل من فلورنسا وميلانو . وقد ساعده على ذلك أن عصره كان يسوده الهدوء الطبيعى وفتور القلاقل السياسية . ومن السهل أن نلتمس فى روايات فرجا ظل الحياة الصقلية فهى مسرح فنه وموطن وحيه . وقد رسم لنا فى بعض رواياته الفذة « كالارادة السيئة » طغيان حكومات عهد الاقطاع على صقلية وأساليب جمعية المافيا الاجرامية التى ظلت تبسط سطوتها على الجزيرة زهاء ثمانية قرون . وكان رائده فى كل ما يسرده من الوقائع الاخلاص والشعور المرهف . فرواياته من هذه الناحية ليست ذات قيمة أدبية فحسب ، بل يمكن اعتبارها من الوجهة التاريخية وثائق مشرفة للحياة الاجتماعية والسياسية وللأخلاق والعادات فى الريف الايطالى

وعلى الرغم من أن هذه الرواية لا مغزى لها ، فاننا نلمح بين

سطورها آثار العقلية الايطالية الخصـــبة ، ووصف الحروب الاستقلاليـة والمعارك البحرية فى الأدرياتيك ، وأخلاق الطبقة الدنيا ، ومواقف غرامية مفجعة ، ونظريات أخلاقية ونفسية ، وتحليل دقيق لأفراد أسرة فقيرة تحترف صيد الأسماك ، ظلت تكافح فى الحياة وتقاوم الحظ السيء الذى لازمها زهاء نصف قرن

لقد كان فرجا يردد المواطف الصادقة فى فنـه والحقائق القاسية ، وليس مذهبه فى الأدب سوى رد فعل لمدرسة كاردوتشى ، وعلى رغم أن هذا الكاتب العظيم كان أميل إلى الصمت وإلى التحفظ فى الكلام تراه متدفقاً كالسيل فى رواياته حتى كتب نيفا وثلاثين رواية طويلة وعشرات الأقاصيص . وقد وصفه النقادة روبناس بقوله : « كان ينفر من الشهرة ، ولكن الشهرة سعت إليه من حيث لا يدرى . وكان شعاره دائماً : فنى هو مجدى ، وكتبي تراثى فى نظر الأجيال »

* * *

ومن كتاب المدرسة الاقليمية الذين اشتهروا خارج بلادهم عن طريق ترجمة أعمالهم الأدبية الى اللغات الحية الكاتب الروائى ماريو بوتشى . ففى مؤلفاته تجد الجو الهادئ الحزين ، وبالأخص فى حياة الريف . وهـذه الصبغة التى تعطى رواياته طابعها الخاص تبين عبء الألم واليأس المنبعث منها . وقد حاول بوتشى فى بعض رواياته « كالمبريون » أن ينجو من الجو المظلم الذى يخلع على أبطاله ظلا من الكآبة ، ولكن ما اتصف به من الركود والتأثرات النفسية والتعلق بأهداب الخيال وغرامه بتصوير حياة القس والفلاحين والجنود جعله بمعزل عن كتاب الجيل المعاصر . والواقع أنه ليس فى فن هذا الكاتب أى أثر للعنف أو الاندفاع ، إنما نحس من الأعماق أننا أمام شخصيات ابتدعها المؤلف فى هدوء ودقة ، كما كان أهل وطنه يصنعون الدمى الخشبية بمجهود شاق فى القرون الوسطى

وكان تورّى أقوى كتاب هذه المدرسة على الاطلاق ، ولكن الموت عاجله وهو فى قمة مجده . وإذا حكمنا على تراثه الفنى أمكننا أن نقول إنه أخرج أعظم روايات الأدب الحديث . وفى فنه تتجلى روح البساطة والسير بأبطاله فى طريقهم الطبيعى ، ورسم مظاهر الانحطاط الانسانى بأسلوب مؤثر . ومن أشهر رواياته « الصليبان الثلاثة » وهى قصة ثلاثة إخوة يدرس بعضهم أخلاق بعض ، وتتغلب الغريزة والأنانية والجشع على أعمالهم ، وينتهون أخيرا الى موت غير شريف ، ولا يبقى من آثارهم سوى صليبان سود ثلاثة فى المقبرة

ولعل شيكو نيانى هو الكاتب الوحيد الذى يرتفع بفنه فوق مستوى المدرسة الاقليمية مما يذكرنا بالمدرسة التوسكانية التى ظهرت آثارها فى القرن التاسع عشر . ويخيل اليك وأنت تطالع الصور الفذة التى يرسمها فى قصصه أنك تسير فى شوارع فلورانسا . وتعد روايته « فيليا » من أحسن الروايات التى ظهرت بعد الحرب العظمى . فالروح الواقعية التى يرسم بها المؤلف شخصية بطلته على أنها فتاة من عامة الشعب محبة لنفسها ، مجردة عن الضمير ، تجر الى الهاوية جميع الذين يلتفون حولها ، من أروع حالات التصوير الاحساسى والتغلغل فى أعماق النفس

أما بور جيزى مؤلف رواية « روبى » فهو من المؤلفين الذين توفروا على دراسة النظريات النفسانية الجديدة . وفى هذه الرواية ما يعطينا صورة واضحة من فنه ، فهى تحليل دقيق لنفسية رجل أنانى مجرد من العواطف الانسانية ، معذب بالشكوك والأوهام ، ليس فى مكنته مقاومة أعاصير الحياة ، فيقـذف بنفسه فى التيار الذى يبعده شيئاً فشيئاً عن حقيقة الحياة إلى أن تدفعه المصادفة السيئة إلى الانتحار . « فروبى » كما يرسمه المؤلف رجل لا شباب فيه ولا عاطفة ؛ وهو لا يعرف الأخلاق ، وغير قادر على أن يحب حتى نفسه . وعلى الرغم من تراخيه وكسله يحلم بأن يصل إلى شىء ، وإن الصفتين الأساسيتين فى خلقه هما ضعف الارادة ورغبته الدائمة فى تحليل عواطفه ؛ وهذا التحليل هو الذى يشل روح حركته ، ويفقده توازنه ، ويقلب فى نظره المقاييس الصحيحة للحياة ؛ فمرة يحاول أن ينسى نفسه فى غمار الحرب ولكن دون حماسة ، ومرة يتزوج من امرأة دون أن يشعر بميل اليها ؛ وهو معتقد أنه تزوج زواجا صالحا إنما هى المصادفة التى قادته إلى هذه المرأة وجعلته يقترن بها ثم يقتلها . ولكن الواقع أنه تركها تموت كمداً من سوء معاملته ؛ وقد صور له الوهم انه قتلها مع أن الشجاعة لا تؤاتيه لقتل حشرة حقيرة

أدب المستقبل

أسس هذه المدرسة بونتمبلى مؤلف رواية « امرأة أحلامى » وكان الغرض منها مقاومة التحليل السادى فى القصة ، ومناهضة أساليب المدرسة الأقليمية ؛ ويمكن أن نعتبر عصرها عصر التفور